تُبَّعٍ » وبمعنى العبادة كقوله : « وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ » فقير : أى محتاج والاستحياء : شدة الحياء ، ليجزيك : أى ليثيبك ، والقصص : الحديث المقصوص أى المخبر به ، أنكحك : أزوجك ، ويقال أجرته : أى كنت له أجيرا كما تقول أبوته أى كنت له أبا ، والحجج : واحدها حجة بكسر الحاء وهى السنة ، قال زهير ابن أبى سلمى :

لمن الديار بقِنَّة الحِجْر أَقْوَيْنَ من حِجج ومن دهر

أشق عليك : أى أدخل عليك مشقة ، الأجلين : أى الأطول والأقرب ، فلا عدوان: أى فلا حرج ، وكيل : أى شهيد .

المعنى الجملى

اعلم أنه بعد أن انتشر فى المدينة حديث موسى عليه السلام مع القبطى رفعه أعوان فرعون و بطانته إليه ، فأتمر هو ومستشاروه وأجمعوا أمرهم على قتله ، وكان من آل فرعون رجل مؤمن يكتم إيمانه ، فأسرع إليه يخبره الخبر و ينصحه بالهرب ، فانتصح بنصحه وسافر إلى أرض مدين إلى الجانب الشرقى من البلاد المصرية وكان من أمره مع قوم شعيب ما قصه الله علينا فى هذه الآيات ، إلى أن رجع إلى مصر وقد أوتى النبوة وهو قافل فى طريقه .

الإيضاح

(وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين) أى جاء رجل مؤمن من آل فرعون يخفى إيمانه عن فرعون وآله لأسباب هو بها عليم ، يسرع للحاق بموسى إشفاقا وخوفا عليه أن يصيبه مكروه من فرعون وآله وقال : يا موسى : إن الملك و بطانته وأشراف دولته يدبرون لك المكايد ، و ينصبون لك الحبائل ، يريدون أن يقتلوك ، فالبدارَ البدارَ والهربَ

الهربَ قبل أن يقبضوا عليك و يُنفِذوا ما دبروه و يقتلوك ، فاخرج من المدينة مسرعا و إنى لك لناصح أمين .

فانتصح بنصحه وتقبل قوله .

(فخرج منها خائفا يترقب) أى فخرج من مدينة فرعون خائفا يترقب لحوق الطالبين و يتلفت يمينا و يسارا و ينظر أيتبعه أحد ؟ .

ثم لجأ إلى الله تعالى علما منه أن لاملجأ إلا إليه .

(قال رب نجنى من القوم الظالمين) أى قال : رب نجنى من هؤلاء الذين من دأبهم الظلم والعسف ووضع الأمور فى غير مواضعها ، فيقتلون من لايستحق القتل ومن لايُجْرِم إلى أحد ، فاستجاب الله دعاءه ووفقه إلى سلوك الطريق الأعظم نحو مدين ، روى أن فرعون لما بعث فى طلبه قال : (اركبوا ثَنِيّات الطريق) فانبثوا فيما بين الطريق الأعظم يمينا وشمالا ففاتهم ونجا من بغيهم .

ثم أخبر عما ناجى به موسى ربه وهو سائر إلى مدين فقال :

(ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل) أى ولما اتجه نحو مدين ماضيا إليها شاخصا عن مدينة فرعون ، قال : رب اهدنى إلى سواء السبيل ، وأرشدنى إلى الطريق القويم ، ونجنى من هؤلاء الظلمة ؛ وقد قال هذا توكلا على الله وثقة بحسن توفيقه، وقد كان لايعرف الطريق ، فعنّ له ثلاث طرائق فسار فى الوسطى وأخذ طالبوه فى الآخرَيْن ، وقالوا : المُريب لايسلك أعظم الطرق، بل يأخذ بُنَيَّاتها (أضيقها غير المشهور منها) وقد روى أنه بقى ثمانى ليال وهو حاف لايطعَم إلا ورق الشجر ، إذ ليس معه زاد ولا دابة يركبها .

ثم ذكر سبحانه ما جرى له حين وصوله إلى مدين من الأحداث فقال :

(ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما ؟ قالتا لانسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير) أى ولما وصل إلى مدين ورد ماءها وقد كان لها بئر يردُه رِعاء الشاء فوجد جماعة منهم

يسقون نعمهم ومواشيهم ، ووجد فى مكان أسفل من مكانهم امرأتين تكفان غنمهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاء لئلا يؤذوها، فلما رآهما موسى كذلك رقّ لهما ورحمهما، قال ما خبركما لم لاتردان الماء مع هؤلاء القوم ؟ فأجابتاه ، قالتا : لانسق غنمنا إلا إذا فرغ هؤلاء من السقى ، وأبونا شيخ كبير لايستطيع السقى بنفسه ، فنحن نلجأ إلى ماترى ، تشرب مواشينا فضل الماء .

ثم ذكر ما قبله بعد أن سمع هذا القصص

(فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير) أى فسقى لهما غنمهما ثم انصرف إلى ظل شجرة ليقيل ويستريح وناجى ربه قائلا : إنى لمحتاج إلى شىء تنزله إلىّ من خزائن جودك وكرمك .

روى عن ابن عباس أنه قال : لقد قال موسى ذلك وهو أكرم خلقه عليه ، ولقد افتقر إلى شق تمرة ، ولقد لصق بطنه بظهره من شدة الجوع .

فجاءه الفرج بعد الشدة وأجاب الله طلبه .

(فجاءته إحداهما تمشى على استحياء قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا) أى فجاءته إحدى المرأتين تمشى وهى حيية قد سترت وجهها بثوبها قائلة : إن أبى يدعوك ليكافئك على ما صنعت من الإحسان ، وأسديت إلينا من المعروف بسقى غنمنا ، قال عمرو بن ميمون : ولم تكن سَلْفعا من النساء (جريئة على الرجال) خَرّاجة ولاّجةً .

وقد أسندت الدعوة إلى أبيها وعلتها بالجزاء حتى لايتوهم من كلامها شىء من الريبة ، كما أن فى كلامها دلالة على كمال العقل والحياء والعفة كما لايخفى .

وقد اختلف فى الأب من هو ؟ فقيل هو شعيب عليه السلام وهو بعيد كل البعد ، لأن شعيبا كان قبل موسى بزمن طويل بدليل قوله تعالى لقومه : « وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ » وقد كان هلاك قوم لوط فى عصر الخليل عليه السلام كما نص

على ذلك الكتاب الكريم ، وكان بين إبراهيم وموسى ما يزيد على أربعمائة سنة ، وفى كتب اليهود أن اسمه يثرو ؛ وفى التوراة فى الفصل الثانى من السفر الثانى مانصه :

ولما سمع بهذا الخبر (خبر قتل القبطى) طلب أن يقتل موسى فهرب من بين يديه وذهب إلى مدين وجلس على بئر ماء ، وكان لكاهن مدين سبع بنات فجاءت وأدلت الدلاء وملأت الأحواض لسقى غنم أبيهن ، فلما جاء الرعاة طردوهن ، فقام موسى فأغاثهن وسقى غنمهن، فلما جئن إلى رعوائيل أبيهن قال : ما بالكن أسرعتن المجىء اليوم ؟ الخ .

وفى الفصل الثالث : وكان موسى يرعى غنم يثرو حميه كاهن مدين .

ولما قدمت هذه المرأة إلى موسى أجابها تبركا بالشيخ لا طمعا فى الأجر .

(فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين) أى فلما جاء موسى هذا الشيخ وحدثه حديثه مع فرعون وآله فى كفرهم وطغيانهم و إذلالهم للعباد وتآمرهم على قتله وهربه منهم بعد الذى علمه ـ قال له : لا تخف من حولهم وطَوْلهم ، إنك قد نجوت من سطوة هؤلاء الظلمة ، إذ لا سلطان لهم علينا ، ولسنا فى دائرة ملكهم .

ولما أمنه وطمأنه على نفسه دار الحديث وكان ذا شجون .

(قالت إحداهما يا أبت استأجره ، إن خير من استأجرت القوى الأمين) أى قالت واحدة من بناته : استأجر موسى ليرعى عليك ما شيتك ، فإن خير من تستأجره للرعى القوىُّ على حفظ الماشية والقيام عليها فى إصلاحها وصلاحها ، الأمينُ : الذى لا تخاف خيانته فيما تأتمنه عليه منها .

ولا يخفى أن مقالها من جوامع الكلم والحكمة البالغة ، لأنه متى اجتمعت هاتان الصفتان : الأمانة والكفاية فى القائم بأداء أمر من الأمور تكفل عمله بالظفر وكفل له أسباب النجح .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه : أفرس الناس ثلاثة : بنت شعيب ، وصاحب يوسف فى قوله : « عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا » وأبو بكر فى عمر .

ولما أعلمت البنت الشيخ بذلك :

(قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتىّ هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك ، وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين) أى قال أبو المرأتين اللتين سقى لهما موسى : إنى أريد أن أزوجك إحدى ابنتىّ الحاضرتين أمامك ، فانظر من يقع اختيارك عليها منهما ، على أن تكون أجيرا لى ثمانى سنوات ترعى لى فيها غنمى فإن أتممت الثمانى السنين التى شرطتها عليك فجعلتها عشرا فإحسان من عندك ، وما أحب أن أشاقك بمناقشة أو مراعاة أوقات ولا إتمام عشر ولا غير ذلك ، وإنك ستجدنى إن شاء الله ممن تحسن صحبتهم ويوفون بما تريد من خير لك ولنا .

وفى هذا دليل على مشروعية عرض ولىّ المرأة لها على الرجل ، فقد عرض عمر ابن الخطاب ابنته حفصة على أبى بكر وعثمان ، وعرضت الموهوبة نفسها على النبى صلى الله عليه وسلم ، قال ابن عمر «لما تأيمت حفصة قال عمر لعثمان : إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر» ، الحديث أخرجه البخارى .

فأجابه موسى :

(قال ذلك بينى وبينك) أى قال ما شرطت علىّ فلك ، وما شرطت من تزوج إحداهما فلى والأمر على ذلك لا يخرج كلانا عنه ، لا أنا عما شرطت علىّ ولا أنت عما شرطت على نفسك .

ثم فسر هذا بقوله :

(أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على) أى أى المدتين قضيت ، الثمانى الحجج أو العشر وفرغت منها فوفيتكها برعى غنمك وماشيتك فليس لك أن تطالبنى بأكثر منها .

روى «أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل: أى الأجلين قضى موسى قال: أوفاهما وأبرهما» رواه الخطيب فى تاريخه .

ثم جعل الله شهيدا على صدق ما يقول كل منهما فقال :

(والله على ما نقول وكيل) أى والله شهيد على ما أوجب كل منهما على نفسه لصاحبه .

فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَامُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَامُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢) .

شرح المفردات

قضى الأجل : أى أتم المدة المضروبة بينهما ، آنس : أى أبصر إبصارا بينا لاشبهة فيه ، جذوة : أى عود غليظ فى رأسه نارا ، تصطلون : أى تستدفئون ، والبقعة : القطعة من الأرض على غير هيئة التى بجانبها ، والجان : الحية الصغيرة التى توجد فى كثير من الدور ولا تؤذى ، ولم يعقب : أى ولم يرجع ، اسلك يدك : أى

أدخلها ، والجيب : الفتحة فى القميص ونحوه من حيث يُخرَج الرأس ، سوء : أى عيب ، والرهب : المخافة .

المعنى الجملى

بعد أن قضى موسى أتم الأجلين وأوفاهما عزم على الرحيل إلى مصر لزيارة أهله وذوى قرابته ، ومما جرأه على ذلك طول مدة الجناية وظنه أنه قد نسى أمره وكأنه أصبح فى خبر كان .

الإيضاح

(فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون) أى فلما وفى موسى صاحبه الأجل الذى اتفق عليه مع حميه تحمل بأهله وما كان معه من الغنم التى وهبها له صهره وسلك بهم الطريق فى ليلة مَطِرة وظلمة باردة ونزل منزلا فجعل كلما أورى زنده لا يضىء شيئا ، فعجب لذلك ، و بينا هو كذلك رأى نارا تضىء عن بعد فقال لأهله انتظروا قليلا، إنى أبصرت نارا لعلى آتيكم منها بخبر الطريق وكانوا قد ضلوا عنه ، أو آتيكم بقطعة من الحطب فيها نار لتستدفئوا بها من البرد وكان الوقت شتاء .

(فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين) أى فلما جاء إلى النار التى أبصرها من جانب الطور ناداه ربه من جانب الوادى الأيمن : أى عن يمين موسى فى البقعة المباركة من ناحية الشجرة : يا موسى إنى أنا الله ربك ورب العالمين جميعا .

وقد خلق الله فيه علما يقينيا بأن المتكلم هو الله تعالى ، وأن ذلك الكلام كلامه ، وقد جعلت الشجرة مباركة ، لأنه تعالى كلم موسى هنالك و بعثه نبيا .

ثم أمره الله أن يلقى عصاه لديه آية بقوله :

(وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولّى مدبرا ولم يعقب) أى ونودى بأن ألق عصاك فألقاها فصارت حية تسعى ، فلما رآها تتحرك وتضطرب كأنها جان من الحيات ، لسرعة عدوها وخفة حركتها ــ ولّى هاربا منها ولم يرجع .

ثم نودى بما يهدئ روعه :

(يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين) أى يا موسى أقبل إلىّ ولا تخف مما تهرب منه ، فإنك آمن من أن ينالك سوء ، إنما هى عصاك أردنا أن نريك فيها آية كبرى ، لتكون عونك لدى الطاغية الجبار فرعون ملك مصر .

ثم أراه آية أخرى زيادة فى طمأنينته وأمره بقوله :

(اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء) أى أدخل يدك فى جيب قميصك تخرج ولها شعاع يضىء من غير عيب ولا برص .

ولما اعترى موسى الخوف من العصا تارة، ومن الدهشة بشعاع يده مرة أخرى ، أمره ربه أن يضع يده على صدره ليزول ما به من الخوف فقال :

(واضمم إليك جناحك من الرهب) أى وضع يدك على صدرك يذهب ما بك من خوف ، كما يشاهد من حال الطائر ، إذا خاف نشر جناحيه ، وإذا أمن واطمأن ضمهما إليه ، وكان موسى يرتعد خوفا إما من آل فرعون وإما من الثعبان .

قال ابن عباس : كل خائف إذا وضع يده على صدره زال خوفه .

ثم ذكر فذلكة لما تقدم بقوله :

(فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه) أى فما تقدم من جعل العصا حية تسعى وخروج اليد بيضاء من غير سوء بعد وضع اليد فى الجيب ــ دليلان واضحان على قدرة ربك وصحة نبوة من جريا على يديه ، أرسلناهما إلى فرعون وقومه.

ثم ذكر العلة فى إظهار الآيات لهم بقوله :

(إنهم كانوا قوما فاسقين) أى إنهم قوم خارجون عن طاعة الله ، مخالفون

لأمره ، منكرون لكل دين جاء به الرسل ، فكانوا جديرين بأن نرسلك إليهم بهاتين المعجزتين الباهرتين .

قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِى هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِى رِدْءًا يُصَدِّقُنِى إِنِّى أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِى آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَى رَبِّى أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧) .

شرح المفردات

الردء : العون ، يقال ردأته على عدوه : أى أعنته عليه ، قال الشاعر :

ألم تر أن أصرمَ كان ردْئى وخيرَ الناس فى قُلٍّ ومال

يصدقنى : أى يوضح ما قلته ويقيم عليه الأدلة ويجادل المشركين ، والعضد : ما بين المرفق إلى الكتف ، والمراد بشد العضد : التقوية والإعانة . قال طَرَفة :

بنى لُبَيْنَى لستُمُ بيد إلا يدًا ليست لها عَضُدُ

والسلطان : التسلط والغلبة ، مفترى : أى مختلق ، عاقبة الدار : أى العاقبة المحمودة فى الدار الدنيا التى تفضى إلى الجنة .

المعنى الجملى

اعلم أنه لما قال سبحانه لموسى فذانك برهانان من ربك علم أنه سيذهب بهذين البرهانين إلى فرعون وقومه — حينئذ طلب منه أن يؤتيه ما يقوّى به قلبه ويزيل

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥)

شرح المفردات

القرية : هى سدوم ، الغابرين : الباقين ، وهو لفظ مشترك فى الماضى وفى الباقى؛ يقال فيما غبر من الزمان : أى فيما مضى ، ويقال الفعل ماض ، وغابر : أى باق ، سىء بهم : أى جاءته المساءة والغم بسببهم مخافة أن يقصدهم قومه بسوء ، ضاق بهم ذرعا : أى عجز عن تدبير شئونهم ، يقال طال ذرعه وذراعه على الشىء إذا كان قادراً عليه ، ومثله رحب ذرعه ، وضده ضاق ذرعه ، لأن طويل الذراع ينال مالا يناله قصيره ، والرجز: العذاب الذى يقلق المتعذب أى يزعجه من قولهم : ارتجز فلان وارتجس : أى اضطرب .

المعنى الجملى

لما استنصر لوط عليه السلام ربه بقوله : (رب انصرنى على القوم المفسدين) استجاب دعاءه و بعث لنصرته ملائكة، وأمرهم بإهلاك قومه، وأرسلهم من قبل بالبشرى لإبراهيم فجاءوه و بشروه بذرية طيبة ثم قالوا له : إنا مهلكو أهل هذه القرية لتمادى أهلها فى الشر و إصرارهم على الكفر والمعاصى ، فأشفق إبراهيم على لوط وقال إن

فى القرية لوطا فقالوا إنا منجوه وأهله إلا امرأته ، ثم ننزل عليهم من السماء عذابا بما اجترحوا من السيئات واجترموا من الذنوب والآثام ، ثم ندعهم عبرة للغابرين وآية بينة لقوم يعقلون .

الإيضاح

(ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية) أى ولما جاءت رسل الله مبشرة بإسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب ـ قالوا لإبراهيم إنا مهلكو قرية سذوم قرية قوم لوط .

ثم ذكروا سبب ذلك فقالوا :

(إن أهلها كانوا ظالمين) لأنفسهم بتماديهم فى فنون الفساد وأنواع المعاصى ، وتكذيبهم رسوله صلى الله عليه وسلم .

ولما قالت له الملائكة ذلك :

(قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها) أى قال إبراهيم إشفاقا على لوط ليعلم حاله : إن فى القرية لوطا وهو ليس من الظالمين لأنفسهم ، بل هو من رسل الله وأهل الإيمان به والطاعة له ، فقال الرسل نحن أعلم منك بمن فيها من الكافرين ، وبأن لوطا ليس منهم .

ثم زادوا ما سلف إيضاحا وطمأنوه بذكر ما يسره من نجاته بقولهم .

(لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين) أى لننجينه وأتباعه من الهلاك الذى هو نازل بأهل القرية إلا امرأته فإنها من الباقين فى العذاب لممالأتها إياهم على الكفر والبغى وفعل الخبائث .

ثم ذكر ما كان من أمر لوط حين مجىء الرسل ضيوفا لديه فقال :

(ولما أن جاءت رسلنا لوطا سىء بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لاتخف ولا تحزن) أى ولما أن جاءت الملائكة من عند إبراهيم إلى لوط على صورة بشر حسان الوجوه

خاف عليهم من قومه وحصلت له مساءة وغم بسببهم مخافة أن يقصدهم أحد بسوء وهو عاجز عن مدافعة قومه وتدبير الحيلة لحمايتهم ودفع الأذى عنهم ، وحين رأوه على هـذه الحال من القلق والاضطراب قالوا له : هوّنْ على نفسك ولا تخف علينا ولا تحزن بما نفعله بقومك ، فإنهم قد بلغوا فى الخبث مبلغا لامطمع فى رجوعهم عنه مهما نصحت وألحفت فى الإرشاد .

ثم ذكروا مايوجب زوال خوفه وحزنه وما يشيرون به إلى أنهم ملائكة فقالوا:

(إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين) أى إنا منجوك من العذاب الذى سينزل بقومك ، ومنجو أتباعك معك ، فلن يصيبكم ما يصيبهم منه إلا امرأتك فإنها من الهالكين ، لمظاهرتها إياهم والميل إلى شد أزرهم والدفاع عنهم ، فقد كانت تدلهم على ضيوفه فيقصدونهم بالسوء ، فصارت شريكة فى الجُرْم .

و بعد أن بشروه بالنجاة قالوا له :

(إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون) أى منزلون عليها عذابا من لدنا يرتجزون له (يضطربون) وتتخلع له قلوبهم ، لأن الفسق قد تغلغل فى أفئدتهم وصار هِجِّيراهم وديدنهم .

وأشهر الآراء أن زلزلة خسفت بهم الأرض وابتلعتهم فى باطنها وصار مكان قريتهم بحيرة ملحة (البحر الميت) .

و بعدئذ بين أن ما حل بهم عبرة لمن اعتبر وادّكر فقال :

(ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون) أى ولقد أبقينا مما فعلنا بهم عبرة بينة ، وعظة زاجرة ، لقوم يستعملون عقولهم فى الاستبصار ، وجعلناها مثلا للآخرين .

ونحو الآية قوله: «وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ. وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟»

وتقدم أن قلنا آنفاً عند ذكر هـذه القصة ما أثبته الكشف الحديث فى هذا الموضع .

قصة شعيب عليه السلام

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٣٧)

شرح المفردات

مدين: أبو القبيلة، وارجوا اليوم الآخر: أى توقعوه وتوقعوا ما يحدث فيه من الأهوال، ولا تعثوا: أى ولا تفسدوا، والرجفة: الزلزلة الشديدة، جاثمين: أى مقيمين؛ من جثم الطائر: إذا قعد ولصق بالأرض، والمراد أنهم ماتوا.

الإيضاح

(وإلى مدين أخاهم شعيباً فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) أى وأرسلنا إلى مدين شعيباً فقال لهم: يا قوم اعبدوا الله وحدا وأخلصوا له العبادة، وارجوا بعبادتكم إياه جزاء اليوم الآخر وثوابه، ولا تفسدوا فى الأرض ولا تبغوا على أهلها فتنقصوا المكيال والميزان وتقطعوا الطريق على الناس بل توبوا إلى ربكم وأنيبوا إليه.

ثم ذكر ما أعقب هذا النصح فقال:

(فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين) أى فكذبوه فيما جاءهم به من عند ربهم فأهلكهم بزلزلة عظيمة ارتجفت لها القلوب واضطربت الأفئدة، فأصبحوا فى دارهم ميتين لاحراك بهم.

وقد تقدمت هذه القصة مبسوطة فى السور: الأعراف. هود. الشعراء.

قصص هود وصالح عليهما السلام

وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨)

الإيضاح

أى وأهلكنا أيضا عادا قوم هود عليه السلام وكانوا يسكنون الأحقاف ، وهى قريبة من بلاد اليمن . وثمود قوم صالح ، وكانوا يسكنون الحِجْر قريبا من وادى القرى مع ما كانوا عليه من العتوّ والتكبر ، وكانت العرب تعرف مساكنهما معرفة تامة وتمر عليها كثيرا وترى ما حل بها .

وما سبب ما جرى عليها إلا أن زين لهم الشيطان أعمالهم من عبادة غير الله ، وصدهم عن الطريق السوى الذى يوصلهم إلى النجاة ، وقد كانوا متمكنين من النظر والاستبصار ، فلم يكن لهم عذر فى الغفلة وعدم التدبر فى العواقب .

قصص موسى عليه السلام

وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِى الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩)

شرح المفردات

يقال سبق فلان طالبه : أى فاته ولم يدركه ، ولقد أدركهم أمره تعالى أىّ إدراك ، فتداركوا نحو الدمار والهلاك .

الإيضاح

أى وأهلكنا أيضا قارون صاحب الأموال الطائلة والكنوز الكثيرة ، وفرعون ملك الملوك فى عصره ومصره ووزيره هامان ، ولقد جاءهم موسى بآيات بينات تدل

على صدق رسالته، فاستكبروا فى الأرض وأبوا أن يصدقوه وأن يؤمنوا به، وما كانوا فائتين الله وهاربين من عقابه، بل هو قادر عليهم وآخذهم أخذ عزيز مقتدر.

عاقبة الأمم المكذبة لرسلها

فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)

شرح المفردات

الحاصب: الريح العاصفة فيها حصباء: أى حجارة صغيرة.

الإيضاح

(فكلا أخذنا بذنبه) أى أهلك الله الأمم المكذبة بأربعة ألوان من العذاب:

(١) (فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا) كقوم عاد إذ قالوا من أشد منا قوة؟ فجاءتهم ريح صرصر عاتية باردة شديدة الهبوب تحمل الحصباء فألقتها عليهم.

(٢) (ومنهم من أخذته الصيحة) كقوم ثمود حين قامت عليهم الحجة ولم يؤمنوا، بل استمروا فى طغيانهم وكفرهم وتهددوا نبى الله صالحا ومن آمن معه، فجاءتهم صيحة أخمدت منهم الأصوات والحركات.

(٣) (ومنهم من خسفنا به الأرض) كقارون الذى طغى وبغى، وعصى الرب الأعلى، ومشى فى الأرض مرحا، وتاه بنفسه معجبا، فخسف الله به وبداره الأرض.

(٤) (ومنهم من أغرقنا) كقوم نوح أغرقوا بالطوفان، وفرعون وهامان وجنودهما أغرقوا فى صبيحة يوم واحد.

ثم بين أن هذه العقوبة جزاء ما اجترحوا من الآثام والذنوب ولم تكن ظلما لهم فقال:

(وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أى ولم يكن الله ليهلكهم بغير جرم اجترموه ، لأن ذلك ليس من سننه تعالى ، وهو لايوافق منهج الحكمة ، فلا يصدر عن الحكيم ، ولكنه أهلكهم بذنوبهم وكفرهم بربهم وجحودهم نعمه عليهم وتقلبهم فى آلائه ، وعبادتهم غيره ومعصيتهم من أنعم عليهم .

مَثَلُ الذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَايَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ (٤٣) خَلَقَ اللهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٤٤) اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَاتَصْنَعُونَ (٤٥)

المعنى الجملى

بعد أن أسلف ــ سبحانه ــ أنه أهلك من أشرك به بعاجل العقاب ، وسيعذبه بشديد العذاب ، ولاينفعه فى الدارين معبوده ، ولا يجديه ركوعه وسجوده ــ أردف هذا بتمثيل حال من اتخذ معبودا دون الله بحال العنكبوت ، وقد اتخذت لها بيتا لايريحها إذا هى أوت ، ولايجيرها من حر أو برد إذا هى ثوت ، ثم زاد الإنكار توكيدا فذكر أن مايدعونه ليس بشىء فكيف يتسنى للعاقل أن يترك القادر الحكيم ويشتغل بعبادة من ليس بشىء ، ثم أردف هذا ببيان فائدة ضرب الأمثال للناس ، وأنه لايدرك مغزاها إلاذوو الألباب ، الذين يفهمون خبىء الكلام وظاهره ، وسره

وعلانيته ، ثم ذكر أنه لم يخلق السموات والأرض إلا لحكمة يعلمها المؤمنون ، ويدركها المستبصرون وهى ما أرشد إليها بقوله : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » .

و بعد أن أمر سبحانه عباده بما تقدم بيانه وأظهر الحق ببرهانه ، ولم يهتد بذلك المشركون ، سلى رسوله بأمره بتلاوة كتابه وعبادته تعالى طرفى النهار وزلفا من الليل ، و إرشاده إلى أن الله عليم بما يصنع عباده وسيجازيهم كفاء ما يعملون من خير أو شر .

الإيضاح

(مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا) أى مثل الذين اتخذوا الأصنام والأوثان من دون الله أولياء يرجون نصرها ونفعها لدى الشدائد ؛ فى قبيح احتيالهم وسوء اختيارهم لأنفسهم ، كمثل العنكبوت فى ضعفها وقلة حيلتها ، اتخذت لنفسها بيتا يكنها من حر و برد ودفع أذى ، فلم يغن عنها شيئا حين حاجتها إليه ، فكذلك هؤلاء المشركون لم يغن عنهم حين نزل أمر الله بهم وحل بهم سخطه أولياؤهم الذين اتخذوهم من دون الله شيئا ولم يدفعوا عنهم ما أحل بهم بعبادتهم إياهم .

وخلاصة ذلك — إن بيت العنكبوت لا يكنّ ولا يمنع أذى الحر والبرد كما هو شأنها فيما ترون ، فكذلك المعبود ينبغى أن يكون منه الخلق والرزق ، وجر المنافع ، ودفع المضار ، وما عبده الكافرون لم يفدهم شيئا من ذلك ، فكيف بهم يصرون على عبادتهم .

ثم ذكر جهلهم وسوء تقديرهم لما صنعوا فقال :

(وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) أى لو كان هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله أولياء — يعلمون أن أولياءهم لا يجدونهم فتيلا ولا قطميرا ؛ كما لا يجدى بيت العنكبوت عنها شيئا — مافعلوا ذلك ؛ لكنهم قد بلغ بهم الجهل وسوء

التقدير حدًّا لايستطيعون معه العلم بعواقب مايفعلون ؛ ومن ثم فهم يحسبون أنهم ينفعونهم ويقربونهم إلى الله زلفى .

وإجمال ماتقدم : مثل المشرك الذى يعبد الوثن إذا قيس بالموحد الذى يعبد الله ؛ كمثل العنكبوت اتخذت بيتا بالإضافة إلى رجل بنى بيتا بآجرّ وجص أو نحته من صخر ؛ وكما أن أوهن البيوت إذا استقريتها بيتا بيتا بيت العنكبوت ، فأضعف الأديان إذا سبرتها دينا فدينا عبادة الأوثان .

ثم زاد الإنكار توكيدا وتثبيتا فقال :

(إنّ الله يعلم ما يدعون من دونه من شىء) أى إن الله يعلم حال ما تعبدون من دونه من الأوثان والأصنام والجن والإنس ، وأنها لا تنفعكم ولا تضركم إن أراد الله بكم سوءا ، وإن مثلها فى قلة غنائها لكم ، كمثل بيت العنكبوت فى قلة غنائه لها .

وقد يكون المعنى : ليس الذين يدعون من دونه شيئا ، إذ هو لحقارته وقلة الاعتداد به لايسمى شيئا .

(وهو العزيز الحكيم) أى والله هو العزيز فى انتقامه ممن كفر به وأشرك فى عبادته معه غيره ، فاتقوا ــ أيها المشركون به ــ عقابه بالإيمان به قبل نزوله بكم ، كما نزل بالأمم الذين قص الله قصصهم فى هذه السورة ، فإنه إن نزل بكم لم تغن عنكم أولياؤكم الذين اتخذتموهم من دونه شيئا ، وهو الحكيم فى تدبير خلقه ؛ فمهلك من استوجب عمله الهلاك ، ومؤخر من رأى فيه الرجاء للصلاح والاستقامة .

ثم بين فائدة ضرب الأمثال فقال :

(وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) أى وهذا المثل ونظائره من الأمثال التى اشتمل عليها الكتاب العزيز ؛ فضربها للناس تقريبا لما بَعُدَ من أفهامهم ، وإيضاحا لما أشكل عليهم أمره ، واستعصى عليهم حكمه ، وما يفهم مغزاها ومعرفة تأثيرها ، واستتباعها لكثير من الفوائد إلا الراسخون فى العلم ، المتدبرون فى عواقب الأمور .

روى عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية فقال «العالم من عقل عن الله تعالى فعمل بطاعته واجتنب سخطه» .

ولما قدم سبحانه أن لا معجز له سبحانه، ولا ناصر لمن خذله، أقام الدليل على ذلك بقوله :

(خلق الله السموات والأرض بالحق إن فى ذلك لآية للمؤمنين) أى خلق السموات والأرض لحكم وفوائد دينية ودنيوية ولم يخلقها عبثا ولهوا ، فبخلقها أمكن إيجاد كل ممكن تعلق به العلم ، واقتضت الإرادة إيجاده ، وأمكن معرفة الخالق الذى أوجدها وعبادته كفاء نعمه ، كما جاء فى الحديث القدسى حكاية عن الله عز وجل : « كنت كنزا مخفيا فأردت أن أعرف فخلقت الخلق فبى عرفونى » .

ولا يفهم هذه الأسرار إلا من آمنوا بالله وصدقوا رسوله ، لأنهم هم الذين يستدلون بالآثار على مؤثرها كما أثر عن بعض العرب : « البعرة تدل على البعير ، وآثار الأقدام تدل على المسير » .

ثم خاطب رسوله مسليا له بقوله :

(اتل ما أوحى إليك من الكتاب) أى أدم تلاوة الكتاب تقربا إلى الله بتلاوته ، وتذكرا لما فى تضاعيفه من الأسرار والفوائد ، وتذكيرا للناس ، وحملا لهم على العمل بما فيه من أحكام وآداب ومكارم أخلاق .

(وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) أى وأدّ الصلاة على الوجه القيّم مريدا بذلك وجه الله ؛ والإنابة إليه مع الخشوع والخضوع له ؛ فإنها إن كانت كذلك نهتك عن الفحشاء والمنكر ؛ لما تحويه من صنوف العبادات من التكبير والتسبيح ، والوقوف بين يدى الله عز وجل ، والركوع والسجود بغاية الخضوع والتعظيم ، ففى أقوالها وأفعالها ما يومئ إلى ترك الفحشاء والمنكر ، فكأنها تقول : كيف تعصى ربا هو أهل لما أتيت به ؟ وكيف يليق بك أن تفعل ذلك

وتعصيه ؟ وأنت وقد أتيت بما أتيت به من أقوال وأفعال تدل على عظمة المعبود وكبريائه ، وإخباتك له ، وإنابتك إليه ، وخضوعك لجبروته وقهره ؛ إذا عصيته وفعلت الفحشاء والمنكر تكون كالمناقض نفسه بين قوله وفعله .

(ولذكر الله أكبر) أى ولذكر الله تعالى إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته .

(والله يعلم ماتصنعون) من خير أو شر وهو يجازيكم كفاء أعمالكم إن خيرا فخير وإن شرا فشر كما جرت بذلك سنته فى خلقه ، وهو الحكيم الخبير .

ولا يخفى مافى ذلك من وعد ووعيد ؛ وحث على مراقبة الله فى السر والعلن « إِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى » .

تم تفسير هذا الجزء من كلام ربنا القديم بمدينة حلوان من أرباض القاهرة حاضرة الديار المصرية فى اليوم الثامن والعشرين من شهر ربيع الثانى من سنة أربع وستين وثلثمائة وألف هجرية . والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله .

فهرست

أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء

الصفحة	المبحث
٣	ما أجاب به قوم لوط لوطا بعد سماع نصائحه .
٥	أمره عليه السلام بأن يحمد الله على نعمه .
٧	توبيخ المشركين على عبادتهم للأصنام والأوثان .
١٠	طلب الدليل على صحة عبادة الأصنام .
١١	لا يعلم الغيب إلا الله .
١٢	قالت عائشة: من زعم أن النبي صلى الله عليه وسلم يعلم ما يكون فى غد فقد أعظم الفرية على الله .
١٤	مقالة المشركين بأن البعث ما هو إلا من أساطير الأولين .
١٦	كل مايحصل فى الوجود فهو فى اللوح المحفوظ .
١٧	إعجاز القرآن من وجوه .
١٨	صفة القرآن .
١٩	تيئيس النبي صلى الله عليه وسلم من إيمان قومه .
٢٠	إنك لاتستطيع أن تهدى العمى عن ضلالتهم .
٢١	ذكر مقدمات يوم القيامة .
٢٢	حال المكذبين عند مجىء الساعة .
٢٣	ذكر الدليل على التوحيد والحشر .
٢٦	أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يقول لقومه: إنما أمرت أعبد الله وحده .
٢٨	أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بترغيب قومه وترهيبهم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف إنكارهم للبعث فى الدنيا وشديد إصرارهم على عدم حدوثه — أردف هذا ببيان أنهم يوم القيامة يرجعون على أنفسهم بالملامة إذا عاينوا أهوال هذا اليوم، ويعترفون بأنهم كانوا فى ضلال مبين ، ويندمون على ما فرّطوا فى جنب الله ، ولات ساعة مندم .

الإيضاح

(وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين) أى وقال أولئك المنكرون للبعث فى الدنيا حين رأوا العذاب : لنا الويل والهلاك فقد حلّ ميعاد الجزاء ، وسنجازَى بما قدمنا من عمل كما وُعِدنا بذلك على ألسنة الرسل فكذبناهم وسخرنا منهم ، وأنكرنا صدق ما قالوا .

ثم أقبل بعضهم على بعض يتناجون ويقولون :

(هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون) أى هذا هو اليوم الذى يمتاز فيه المحسن بما قدم من عمل عن المسىء الذى دسّى نفسه بما ران على قلبه من الفسوق والعصيان ، ومخالفة أوامر الملك الديان ، وينال كل منهما جزاء ما عمل، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، فيُدخل الأول جنات النعيم على فرش بطائنها من إستبرق ، ويُدْخِل الثانى فى سقر « وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ . لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ » .

ثم ذكر خطاب الملائكة بعضهم لبعض فقال :

(احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون. من دون الله) أى تقول الملائكة للزبانية : احشروا الظالمين من كل مكان إلى موقف الحساب مع أشباههم وأمثالهم ، فاجعلوا ذوى المعاصى المتشابهة ، بعضهم مع بعض ، فاجعلوا الزناة معا ، والآكلين لحوم الناس والناعشين لأعراضهم كذلك ، واجعلوا عابدى الأصنام

ومعبوديهم من الأوثان والأصنام معا ، ليكون فى ذلك زيادة لهم فى الحسرة وعظيم التخجيل على ما أتوه من عظيم الشرك وكبير المعصية .

ثم زادوا فى تأنيبهم وتوبيخهم فقالوا :

(فاهدوهم إلى صراط الجحيم) أى فأرشدوهم إلى طريق جهنم ودلوهم عليها ، وفى هذا زيادة فى النكاية بهم والازدراء بشأنهم ، إذ كانوا فى الدنيا يزدرون المؤمنين ويتقحمونهم .

(وقفوهم إنهم مسئولون) أى واحبسوهم فى الموقف ، حتى يسألوا عما كسبت أيديهم ، واجترحوا من الآثام والمعاصى وعن تلك العقائد الزائفة التى زينها لهم الشيطان ، فأضلتهم عن سواء السبيل .

وفى الأثر « لاتزول قدما عبد حتى يسأل عن خمس: عن شبابه فيم أبلاه ؟ وعن عمره فيم أفناه ؟ وعن ماله مم كسبه ؟ وفيم أنفقه ؟ وعن علمه ماذا عمل به ؟ »

ثم زادوهم تقريعاً وتعنيفاً فسألوهم :

(مالكم لاتناصرون ؟) أى لأى شىء لاينصر بعضكم بعضا وقد كنتم فى الدنيا تزعمون أنكم تتناصرون ، فقد روى أن أبا جهل قال يوم بدر : نحن جميع منتصر .

وأخر سؤالهم إلى ذلك الحين؛ إذ كان الوقت وقت تنجيز العذاب وشدة الحاجة إلى النصير والمعين ، وقد انقطع الرجاء منه ، فالتقريع حينئذ أشد وقعا وأعظم أثرا .

والخلاصة — إن الأمر بهدايتهم إلى الجحيم إنما يكون بعد إقامة الحجج عليهم وقطع أعذارهم بعد حسابهم .

ثم ذكر أنهم لاينازعون فى الوقوف ولا فى غيره ، بل ينقادون فقال :

(بل هم اليوم مستسلمون) أى بل هم منقادون لأمر الله لايخالفونه ولا يحيدون عنه ، إذ قد سدت أمامهم وجوه الحيل وعجزوا عن الوصول إلى السلام من أى طريق يلتمسونها ، فلا فائدة فى المنازعة ، ولا سبيل إلى الجدل والمخاصمة .

يقال أعتبنى فلان : أى أرضانى بعد إسخاطه إياى ، قال الخليل : تقول استعتبته فأعتبنى : أى استرضيته فأرضانى ، قال النابغة فى اعتذارياته للنعمان بن المنذر :

فإن أكُ مظلوما فعبدٌ ظلمتَه وإن يك ذا عُتْبَى فمثلك يُعْتِبُ

المعنى الجملى

بعد أن بين كيف عاقب أولئك الجاحدين فى الدنيا وأذاقهم عذاب الهون بما كانوا يكسبون — أردف ذلك بذكر عقابهم فى الآخرة ، ليكون ذلك أتمّ للزجر ، وأكثر فى الاعتبار لمن اعتبر .

الإيضاح

(ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون) أى واذكر أيها الرسول لقريش المعاندين لك حال الكفار يوم القيامة ، لعلهم يرتدعون ويزدجرون حين يساقون إلى النار ، فيحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا ويجتمعوا قاله السدى وقتادة وغيرهما .

وفى هذا إيماء إلى كثرة عددهم وشدة سوقهم ودفعهم .

(حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون) أى حتى إذا وقفوا على النار شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجوارحهم بما كانوا يعملون فى الدنيا من المعاصى ، بعلامات متمايزة تدل على الأخلاق المختلفة ، لكل خلق منها علامة خاصة نحن لا نعرف الآن كنهها ، وربما كانت سوائل روحية ، كل سائل يدل على خلق من الأخلاق كما يكون فى أنواع النبات والشجر روائح مختلفة ؛ فالعلم والحلم والنشاط وحب الناس لها سوائل جميلة ، والجهل والطيش والكسل وبغض الناس لها سوائل رديئة ، وتلك السوائل تلازمهم فتكون مشقية لهم ومضايقة ، أو مفرحة لهم ومنعمة ، وهكذا الأجسام بعد الموت لا تشبه نفس نفسا أخرى فى أوصافها ، فهذه هى الشهادة التى تشهد بها أسماعهم وأبصارهم وجلودهم .

ثم ذكر سبحانه أنهم لاموا جوارحهم على أداء الشهادة التى تلزمهم الحجة، فحكى عنهم قولهم لها .

(وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ؟) أى قالوا على جهة اللوم والمؤاخذة لجلودهم حين شهدوا عليهم ، لم شهدتم علينا ؟ وقد كانوا فى الدنيا مساعدين لهم على المعاصى ، فكيف يشهدون عليهم الآن ؟ .

فأجابوهم حينئذ معتذرين :

(قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء) أى قالوا : إن الله جعل فينا من الدلالات الفعلية ما يقوم مقام النطق ، بل ما هو أفصح منها ، فشهدنا عليكم بما فعلتم من القبائح .

وفى صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: «كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال : هل تدرون مم أضحك ؟ قلنا الله ورسوله أعلم قال : من مخاطبة العبد ربه ، يقول : ألم تجرنى من الظلم؟ قال: يقول بلى . قال فيقول فإنى لاأجيز على نفسى إلا شاهدا منى . قال : يقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا ، وبالكرام الكاتبين شهودا ، قال : فيختم على فيه فيقال لأركانه : انطقى ، فتنطق بأعماله ، قال ثم يخلّى بينه وبين الكلام ، قال : فيقول بُعْدًا لكن وسُحْقاً ، فعنكنّ كنت أناضل » .

(وهو خلقكم أول مرة) فهو لايخالَف ولا يمانَع ، وقد جعل فيكم دلائل واضحة كخطوط اليد والإبهام والأصوات وألوان الوجوه وأشكالها ، ولكنّ قليلا من الناس من يفطن إلى ذلك .

فمن قدر على خلقكم وإنشائكم ابتداء قدر على إعادتكم ورجعكم إليه ، ومن ثم قال :

(وإليه ترجعون) أى وإليه مصيركم بعد مماتكم ، فيجازى كل نفس بما كسبت لامعقب لحكمه ، وهو سريع الحساب .

ثم وبختهم جلودهم على ما كانوا يفعلون فى الدنيا فقالت لهم :

(وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم) أى وما كنتم تَسْتَخْفُون حين تفعلون قبيح الأعمال ، وترتكبون عظيم الفواحش- بالحيطان والحجب حذراً من شهادة الجوارح عليكم ، بل كنتم تجاهرون بالكفر والمعاصى ، وتجحدون البعث والجزاء .

قال عبد الأعلى بن عبد الله الشامى فأحسن :

العمرُ ينقص والذنوبُ تزيد وتقال عَثْراتُ الفتى فيزيدُ
هل يستطيع جحودَ ذنب واحد رجلٌ جوارحُه عليه شهودُ
والمرء يُسأل عن سِنيه فيَشْتَهى تقليلَها وعن الممات يحيدُ

(ولكن ظننتم أن الله لايعلم كثيرا مما تعملون) أى ولكن ظننتم عند استتاركم من الناس مع عدم استتاركم من أعضائكم أن الله لايعلم كثيرا مما كنتم تعملون من المعاصى فاجترأتم على فعلها .

والخلاصة — إنكم كنتم فى الدنيا تستترون عن الناس خوف الفضيحة والعار حين ارتكاب الذنوب ، وما ظننتم أن أعضاءكم وجسمكم الأثيرى الذى هو على صورة الجسم الظاهرى قد سطرت فيه جميع أعمالكم ، كأنه لوح محفوظ لها فلذلك ما كنتم تستترون عنها بترك الذنوب .

وفى الآية إيماء إلى أنه لاينبغى للمؤمن أن تمر عليه حال إلا وهو يفكر فى أن الله رقيب عليه ، كما قال أبو نواس :

إذا ما خلوتَ الدهر يوما فلا تقل خلوتُ ولكن قُلْ علىَّ رقيب
ولا تحسبنّ اللهَ يغفُل ساعةً ولا أنَّ ما يخفى عليه يغيب

أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال: « كنت مستترا بأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر قرشى وثقفيان ، أو ثقفى وقرشيان ، قليلٌ فقه قلوبهم ، كثير شحم

بطونهم ، فتكلموا بكلام لم أسمعه ، فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع كلامنا هذا ؟ فقال الآخر : إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه ، وإذا لم نرفعه لم يسمعه ، فقال الآخر إن سمع منه شيئا سمع كله ، قال : فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل : « وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ — إلى قوله مِنَ الْخَاسِرِينَ » .

(وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين) أى وهذا الظن الفاسد الذى كان منكم فى الدنيا وهو أن الله لايعلم كثيرا من قبائح أعمالكم ومساويها — هو الذى أوقعكم فى مواقع التلف والردى ، فصرتم اليوم من الهالكين إذ صرفتم ما منحتم من أسباب السعادة إلى الشقاء ، فكفرتم نعم الخالق والرازق ، وانهمكتم فى الشهوات والمعاصى .

أخرج أحمد وأبو داود والطيالسى وعبد بن حميد ومسلم ، وأبو داود وابن ماجه وابن مردويه عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لايموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى ، فإن قوما قد أرداهم سوء ظنهم بالله فقال الله : « وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » .

قال العلماء : الظن قسمان :

(١) حسن؛ وهو أن يظن بالله عز وجل الرحمة والفضل والإحسان ، قال صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله عز وجل « أنا عند ظن عبدى بى » .

(٢) قبيح ؛ وهو أن يظن أن الله يعزب عن علمه بعض الأفعال .

وقال قتادة ، الظن نوعان : مُنْجٍ ومُرْدٍ .

(١) فالمنجى قوله : « إِنِّى ظَنَنْتُ أَنِّى مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ » وقوله : « الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ » .

(٢) والمردى هو قوله : «وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ» .

وقال عمر بن الخطاب فى هذه الآية : هؤلاء قوم كانوا يدمنون على المعاصى ، ولا يتوبون منها ، ويتكلمون على المغفرة ، حتى خرجوا من الدنيا مفاليس ، ثم قرأ : « وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الذى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » .

وقال الحسن البصرى : إن قوما ألهتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا وما لهم حسنة ، ويقول أحدهم : إنى أحسن الظن بربى وقد كذب، ولو أحسن الظن لأحسن العمل ، وتلا قول الله : « وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » .

ثم أخبر عن حالهم فقال :

(فإن يصبروا فالنار مثوى لهم) أى فإن أمسكوا عن الاستغاثة لفرج ينتظرونه لم يجدوا وتكون النار مثوى لهم ومُقاما .

(وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين) أى وإن يبدوا معاذير فلن تقبل منهم ولا تقال لهم العثرات .

ونحو الآية قوله تعالى : « سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَالَنَا مِنْ مَحِيصٍ » .

وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا

أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين (٢٩) .

شرح المفردات

وقيضنا : أى يسرنا وهيأنا ، قرناء : واحدهم قرين : أى أخدانا وأصحابا من غواة الجن والإنس ، والغوا فيه : أى عارضوه باللغو والباطل حين يقرأ لتهوّشوا عليه ، دار الخلد : أى دار الإقامة المستمرة ، تحت أقدامنا : أى ندوسهما بهما انتقاما منهما.

المعنى الجملى

اعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد الشديد فى الدنيا والآخرة على الكفر والمعاصى أردف ذلك بذكر السبب الذى من أجله وقعوا فى الكفر ، ثم حكى عنهم جناية أخرى وهى أنهم كانوا إذا سمعوا القرآن عملوا الحيلة فى عدم إسماع الناس له حتى لايتدبروا معناه ، فتشاغلوا حين قراءته برفع الأصوات وإنشاد الأشعار حتى يهوشوا على القارئ ويغلبوا على قراءته ؛ ثم ذكر أنهم حين يقعون فى العذاب الشديد يطلبون أن يروا من كانوا السبب فى وقوعهم فى الضلال من الجن والإنس ليدوسوهم تحت أقدامهم انتقاما منهم على أن صيروهم فى هذه الهاوية .

الإيضاح

(وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم) أى وسلطنا عليهم إخوانا وأعوانا من شياطين الجن والإنس ، فزينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الدنيا من الضلالة والكفر واتباع الشهوات ، وما خلفهم من أمر الآخرة ، فألقوا إليهم أن لاجنة ولا نار ولا بعث ولا حساب ، إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا

وما يهلكنا إلا الدهر ، فسهل عليهم فعل ما يشتهون ، وركوب كل ما يتلذذون به من الفواحش .

(وحق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس) أى ووجب عليهم من العذاب ما وجب على الذين كفروا من قبلهم ممن فعلوا فعلهم .

ثم علل استحقاقهم للعذاب فقال :

(إنهم كانوا خاسرين) أى لأنهم استووا جميعا فى الخسار والدمار واستحقوا اللعن والخزى فى الحياة الدنيا والآخرة .

و بعد أن أخبر عن كفر قوم هود وصالح وغيرهم أخبر عن مشركى قريش وأنهم كذبوا بالقرآن فقال :

(وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) أى وقال الذين كفروا بالله ورسوله : لا تنصتوا لسماع هذا القرآن ، وعارضوه باللغو والباطل بإنشاد الشعر والأراجيز حتى تهوشوا على القارئ لعلكم تغلبون على قراءته ، وتميتون ذكره .

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم وهو بمكة إذا قرأ القرآن يرفع صوته ، فكان المشركون يطردون الناس عنه و يقولون : الغوا فيه بالبكاء والصفير و إنشاد الشعر .

قال ابن عباس : قال أبو جهل إذا قرأ محمد فصيحوا فى وجهه حتى لا يدرى ما يقول :

وقد يكون المعنى لا تطيعوا . من قولهم : سمعت لك : أى أطعتك .

ثم أوعد الكفار بالعذاب الشديد فقال :

(فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون) أى فلنذيقن الكافرين عذابا لا يحاط بوصفه ، ولنجازينهم بأسوإ أعمالهم ، لأن أعمالهم الحسنة كصلة الأرحام و إكرام الضيف قد أحبطها الكفر ، ولم يبق لهم إلا القبيح ، ومن ثم لم يجازَوا إلا على السيئات .

وفى هذا تعريض بمن لايخشع ولا يتدبر حين سماع القرآن ، وتهديد ووعيد لمن يصدر منه حين سماع القرآن ما يهوش على القارئ ويخلط عليه القراءة .

ثم بين العذاب الشديد الذى يحيق بهم فقال :

(ذلك جزاء أعداء الله النار) أى ذلك الجزاء المعدّ لأعداء الله هو النار .

(لهم فيها دار الخلد) أى إنهم مخلدون فيها أبدا لا انقطاع لعذابها ولا انتقال منها .

ثم ذكر أن هذا جزاء لما عملوا فقال :

(جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون) أى هى جزاء لهم على جحودهم بآياتنا ، واستكبارهم عن سماعها .

ثم بين أنهم حين وقوعهم فى العذاب الشديد يطلبون الانتقام ممن أضلوهم من شياطين الإنس والجن فقال :

(وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين) أى وقال الكافرون وهم يتقلبون فى العذاب : ربنا أرنا شياطين الإنس والجن الذين أوقعونا فى الضلال ندسهم تحت أقدامنا انتقاما منهم ومهانة وذلة لهم .

وقصارى ذلك — إنهم طلبوا من ربهم أن يريهم من أضلهم من فريقى الجن والإنس من الرؤساء الذين كانوا يزينون لهم الكفر ، والشياطين الذين كانوا يوسوسون لهم ويحملونهم على المعاصى .

والشياطين على ضربين : جنىّ وإنسىّ، قال تعالى : «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ » وقال : « الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ . مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ » .

وقال علىّ كرم الله وجهه : هما ابن آدم الذى قتل أخاه وإبليس أى لأنهما هما اللذان سنّا المعصية .

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ، وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢) .

شرح المفردات

استقاموا : أى ثبتوا على الإيمان ولم يرجعوا إلى الشرك ، أولياؤكم : أى أعوانكم فى شئونكم ، تدّعون : أى تتمنون وتطلبون ، النزل : ما يهيأ للضيف ليأكله حين نزوله .

المعنى الجملى

بعد أن أسلف القول فى وعيد الكفار بما لم يبق بعده فى القوس منزع — أعقبه بهذا الوعد الشريف للمؤمنين كما هى سنة القرآن من إتباع أحدهما بالآخر كما جاء فى قوله : « نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » .

قال عطاء عن ابن عباس نزلت هذه الآية فى أبى بكر الصديق .

الإيضاح

(إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) أى إن الذين قالوا ربنا الله اعترافا بربوبيته ، وإقرارا بوحدانيته ، ثم ثبتوا على ذلك فلم تزل أقدامهم ، ويدخل فى هذا كل العبادات والاعتقادات .

قال أبو بكر رضى الله عنه : الاستقامة ألا يشركوا بالله شيئا . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والدارمى والبخارى فى تاريخه ومسلم والنسائى وابن ماجه وابن حبّان عن سفيان بن عبد الله الثقفى « أن رجلا قال : يا رسول الله مرنى بأمر فى الإسلام لا أسأل عنه أحداً بعدك ، قال : « قل آمنت بالله ثم استقم » قلت : فما أتّقى ؟ فأومأ إلى لسانه » قال الترمذى حسن صحيح .

والخلاصة — الاستقامة : الاعتدال فى الطاعة اعتقاداً وقولا وفعلا مع الدوام على ذلك .

(تتنزل عليهم الملائكة) من عند الله سبحانه بالبشرى التى يريدونها من جلب نفع أو دفع ضر أو رفع حزن ؛ أى بكل ما يعنّ لهم من الشئون الدنيوية والدينية مما يشرح صدورهم ويدفع عنهم الخوف والحزن بطريق الإلهام ، كما أن الكفار يغويهم قرناء السوء بتزيين المعاصى وارتكاب الآثام .

قال وكيع : البشرى تكون فى ثلاثة مواطن : عند الموت ، وفى القبر ، وعند البعث.

(ألا تخافوا ولا تحزنوا) أى لا تخافوا مما تقدمون عليه من أمور الآخرة ، ولا تحزنوا على ما فاتكم من أمور الدنيا من أهل وولد ومال .

وقال عطاء : لا تخافوا رد ثوابكم فإنه مقبول ، ولا تحزنوا على ذنوبكم فإنى أغفرها.

(وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون) أى ويقال لهم : أبشروا بالجنة التى وعدتم بها على ألسنة الرسل فى الدنيا ، فإنكم واصلون إليها ، مستقرون بها خالدون فى نعيمها .

ثم بشرهم سبحانه بما هو أعظم من هذا كله فقال :

(نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) أى نحن أعوانكم فى أمور دنياكم نلهمكم الحق ، ونرشدكم إلى ما فيه خيركم وصلاحكم فى دنياكم ، وكذلك نكون معكم فى الآخرة نؤمّنكم من الوحشة فى القبور ، وعند النفخة فى الصور ، ويوم البعث والنشور ، ونجاوزكم الصراط المستقيم ، ونوصلكم إلى جنات النعيم .